هنا.. كانت قريتي..!

جئت إليها زائرًا بعد عشرين عامًا من الغربة، تبدلت أحوالها كثيرًا، استحالت خضرتها رمادًا لوّث فضاءها، لم يبقَ منها سوى اسمها.

كنّا أطفالًا، تنحصرُ دنيانا الصغيرة بين البيت وحقول القمح المترامية حوله -اختفت اليوم وارتفعت مكانها بناية من عدة طوابق- كانت آخر ما تدركه حواسنا ساقية تقع على بُعد أمتار من الجسر، كنا نخشى الاقتراب منها كثيرًا، فالحكايات التي نسمعها عنها وعن ذلك الجنّيّ الذي يسكنها كانت قادرة على إخافتنا، أما الحديث عنها فكان بين القلائل ممن نصفهم بالشجاعة.

نخرج في الصباح الباكر حيث أشجار النخيل المتناثرة حول حقول البرسيم؛ نجمع البلح الأخضر اللذيذ الذي يسقط ليلًا، وما أجمل نسيم الصَّباح حين يداعب أنوفنا في هذا الجو البديع، يزيد من جماله تلك الخضرة حولنا تكسوها قطرات الندى فتبدو كحبات اللؤلؤ، نرجع إلى البيت وكل منا يتباهى بما جمع من البلح..!

لا نلبث أن نعود للجري واللعب وسط سنابل القمح التي تبدو كمروج الذهب يغازلها نسيم الهواء، وتتراقص أزهار البرسيم الحجازي بألوانها المختلفة، نتسلى بصيد حشرة اليعسوب بألوانها الزاهية وأجنحتها الشفافة، ما إن تحط على الأغصان حتى نتحيّن الفرص لصيدها، كصياد ينصب فخًّا؛ ليوقع بصيد ثمين

كنا كذلك دائمًا، لا يصرفنا عن اللعب والاستمتاع بجمال الطبيعة إلا رؤية الرجل المجذوب أو سماع صوته، رغم أنه لا يؤذي أحدًا، إلا أن هيئته كانت كفيلة بأن تجعلنا نلوذ بالفرار عند رؤيته، كان ذلك الرجل طويلًا نحيفًا، أسمر البشرة طويل الشعر، حافي القدمين، رثّ الثياب، ونراه أحيانًا بلا ثياب يهيم عريانًا في صيف كان أو شتاء!

أذكر يوم كنا تحت شجرة السدر العتيقة، نجمع النبق، ما إن سمعناه يصيح بعباراته التي حفظناها جيدًا، حتى لاذ الجميع بالفرار، أطلقت ساقيّ للريح، وقلبي الصغير يذوب حسرة على كيس النبق الذي تركته بعد أن امتلأ لآخره!

حكت لنا أمي -ذات يوم- عن ذلك المجذوب، الذي كان رجلًا ثريًّا مسموعَ الكلمة، إلا أن هروب زوجته مع أحد أقاربه بعد سرقته قد أطاح بعقله، فتراه هائمًا على وجهه طوال اليوم، لا يكاد يستقر في مكان، طالما عطف عليه أبي، قائلًا : «أكرموا عزيز قوم ذل» أراه حين يمر ببيتنا وأبي جالسًا على (دكّة) أمام البيت، يشرب شاي العصاري مع بعض رفاقه، فيجلسه ويعطيه كوبًا من الشاي، كان الرجل يهوى به إلى جوفه ساخنًا، فأنظر إلى فعلته تلك وأنا فاغر الفم محملق العينين، وقد علت قهقهة أبي ورفاقه، وهم يعلقون على فعل الرجل.

كنت في وقت الظهيرة مع رفاقي تحت شجرة السنط نجمع القرظ الذي نبيعه في سوق القرية الأسبوعي، فترامى إلى أسماعنا حديث الناس عن اختفاء المجذوب، حتى تلك العُشَّة التي يأوي إليها مساءً، لا أثر له فيها.

أين ذهب الرجل..؟! ليس له مأوىً آخر، وإن كان قد مات، فأين جثته؟

انتشر الهلع بين أهل القرية، وبدأ خوفهم على صغارهم يزداد، ثم شرع الناس في نسج القصص واختلاق الحكايات حول هذا الأمر، فاليوم نسمع أن الرجل غرق في الساقية المسكونة؛ حيث كان كثير التردد عليها، وغدا يميل البعض إلى الخرافة قليلًا، فنسمع أنه تحول إلى كائن آخر، أو انتقل بكراماته إلى قطر آخر.

كانت الشمس تلملم أشعتها عندما كنا نمرح تحت شجرة السدر العتيقة، فإذا بأعداد من الرجال يهرولون ناحية الجسر الغربي، جرى الرجال وتبعهم الصبية، وجريت مع الجميع حتى إذا وصلنا هناك، رأينا مشهدًا لا يزال محفورًا في ذاكرتي ولا أظنه مفارقها، رأينا جِوالًا من الخيش وضعت فوقه بقايا رجل بُقرت بطنه، وأُخرجت أعضاؤه، فبدت الجثة كهيكل ماثل أمامنا، وجدها أحد الفلاحين ملقاة في أرضه وسط أعواد القصب، إنها جثة المجذوب الذي اختفى منذ أيام.

لا أدري ما الذي ذكرني بقصة ذلك المجذوب تحديدًا؟ لكن ربما لأن قتله كان بداية التغيير الذي أصابت لعنته نقاء قريتي..!